Editor - in- Chief
Fakhri Karim
Al Mada
General Political Daily
Tus. (1) March 2005
http://www.almadapaper.com
E-Mail-almada112@yahoo.com
250 IQ
16 Pages

أحنّ إلى خبز أمي

على الرغم من انتشار الأفران الحجرية والاتوماتيكية وتفننها في صناعة الصمون باشكاله وأنواعه العديدة ، كذلك تنوعت المعجنات باشكال الخبز الحديثة من (التفتوني) و(العيش) و(الحناني) و(الطولاني) و (المصلاوي) وشرائح الفطائر من الخمائر الأجنبية ، يبقى رغيف خبز الأم من تنورها الطيني ذا نكهة لا تنسى وطعماً خالداً على مذاق العمر ، ليس رمزاً في ذاكرة الطفولة ، بل حياة مسجورة بحنان دافئ وألوان حنطية تمثل العذوبة كلها ، ومهما حاولت تلك المخابز تقديم الرغيف في ديكوراتها الراقية ، يظل منظر الأم امام تنورها يثير في دواخلنا حرارة الرغيف الذي يسري في العروق صدقاً وعرفاناً ومحبة تمس شغاف القلوب على مدى السنوات. ترى ماذا يعني خبز الأم ؟

جلال حسن

أجابني الكاتب علي دنيف حسن قائلاً: يذكرني خبز الأم بكل الأفراح والآلام العتيقة منذ كنا صغاراً نتحلق حول تنورها الطيني، ونتخاصم فيما بيننا للحصول على أول رغيف خبز حار تخرجه يداها التي طالما مسدت لنا رؤوسنا وكفكفت دموعنا، وهو يذكرني حقيقة بالبراءة والعافية والبركة تلك التي افتقدناها مع وصول التنور الحديدي وقناني الغاز، ولا أدري لماذا أتصور في داخلي دائماً بأني افتقدت طعم ذلك الخبز لفترات طويلة.

فهو وحده يذكرنا بالأهل والعائلة التي كنا دافئين ولائذين بجمالها لسنوات طويلة، وما زلت أفرح كثيراً حين تخبرني زوجتي بأن الخبز الذي على مائدة الطعام هو من صنع أمي، فما زلت حتى الآن اشعر بطعم لذيذ وشهية مفتوحة لتناول خبزها ولكن الأيام.. الأيام.

رائحة الأم:

اما الناقد ناظم السعود فقال: قبل أربعين سنة سمعت من جارنا المسيحي الطيب عبارة يرددها كل مساء وبشكل علني، لا سيما أمام مائدة العشاء كان يقول (اللهم اعطنا خبزنا كفاف يومنا) يومها تأثرت كثيراً بتلك العبارة لأننا نعيش يومياً من خلال وجبة الإفطار، حيث رائحة الأم تسبق رائحة القمح المحترق، فكنا سبعة أخوة تفرقوا فيما بعد، نلتف حولها مثل العصافير أمام ذلك التنور في الهواء الطلق خلف كوخ صغير يحتضن اجسادنا في مساحة ما من أرض (الدورة) رغم الإجحاف والفقر واللاإنتماء لكوننا مهاجرين من الريف إلى العاصمة ولا نملك غير كيس طحين، ووقفة الأم وهي تجمع بقايا الحطب، ومن يديها تخرج الأرغفة ساخنة في فضاء الله، كان لها فعل المعجزة في توجيهنا إلى القادم المجهول إذ كان الرغيف هو مشيمة الأم الباقية التي تمدنا بالشبع الكافي والأمان، نأكل الارغفة حتى من دون أطعمة مساندة إلا ما أخشوشن في الأرض، هكذا بقي الرغيف علامة اطمئنان في زمن النشأة والفقر وما زلت أتذكر تلك الأرغفة بكل محبة وصدق رحم الله الأم والخبز اللذين كانا.

بنيوية الرغيف:

يقول الناقد المسرحي جبار حسين صبري: ثمة ملحمة توافرت خصائصها وتأثيراتها على بنية الذات العراقية التي تعرجت دائماً في سنوات (المحنة) ولطف المحبة المليئة بسلال من فاكهة القلب الخالصة، ومن تلك الخصائص انسيابية وتناغمية العلاقة بين الرغيف الذي تعجنه الأم وتكوره ثم تفرشه على (المخدة) ثم تضعه في التنور، ولربما تندرج من هذه العملية مفاهيم وعلاقات حيث ان مرحلة اعداد العجين عن طريق الأم تعني مرحلة إعداد القلب عملاً منه في صياغة مستقبل طفلها، ومما يؤكد ذلك عمليات التفاني في تعجين الدقيق وهي إشارة فاعلة كذلك قيمة التكوير تشابه في اعداد الرغيف قيمة ثدي الأم وعمليات الرضاعة الطبيعية وتلك خصيصة كبرى في بنية الذات إضافة إلى دائرية التنور وعمليات السجر واللهب (المتفور) في دلالته في جوف التنور وأعني به ذلك اللهب المعطاء الذي يفيض على البنية تواصلات واستمرارية في النمو خلاف المعتاد من كونه مادة غذائية.

هذه المفاهيم جميعاً لو توافرت معاً أيضاً بخلاصة عملية من تماهي قلب الأم ستشكل محاور تبني الذات، هذا البناء الذي تتفطر له الروح وتتدفأ عناصر ومكونات الذات كشفاً وتجلياً وروحنة وجسداً في عالم من ملكوت المحبة.

رغيف الحياة:

اما الأستاذ فاضل طلال القريشي فقال: هذا السؤال يؤلمني، لأنه يذكرني بكل شيء عزيز متمنياً ان يبقى معي طول العمر وأنا إلان، شيخ طاعن في السن، فرغيفها يعني الحياة، الحنان الفطري، النقاء، فكانت رحمها الله دنيا من الحنان الأزلي يسكن في حنايا الضلوع، فكنت أتلهف شوقاً لرغيف خبزها من التنور وهي تعطيه لي لتشد من المحبة كأنها جبل وأنا حصاة صغيرة في هذا الجبل لأستنير بكل ما تقدمه، وأقول لأولادي حينما يطالبونني بأشياء لا أتمكن من تحقيقها لهم، كذلك إخواني . اقول لهم . ألم يقدم لكم أبي أماً طاهرة تساوي كنوز الأرض. فخبز الأم رقائق لا يمكن موازنتها حتى بالذهب في ذلك الحيف، كذلك علمني احترام الناس وكيف أحبهم وأعيش في وسطهم أحيطهم بالمحبة والفضل في ذلك يعود إلى قلب أمي وخبزها الصادق.

الأنفاس الطيبة:

وقال الكاتب علي القيسي: لقد تجولت في مدن كثيرة وعواصم عديدة، وأطلعت على أنواع من الخبز هنا وهناك، ومنها الخبز الفرنسي الشهير الذي يعتبر متميزاً في الجودة والصنع، إلا ان كل ذلك لا يصل إلى رغيف أمي الذي فيه من الطعم واللذة الشيء الكثير، فعندما كنت صغيراً كنت أقف جوار التنور حيث توزع أمي أول رغيف على الجيران وكل شخص محتاج في محلتنا الصغيرة وتدفعني أحياناً بالذهاب إلى احد البيوت القريبة منا لأعطيهم من خبزها اللذيذ وأتذكر كنت أقف جوارها لتخبز لي (حنية) فياليتني عدت إلى تلك الأيام الجميلة حيث الخبز الحار الذي تسلفنه أمي بأنفاسها الطيبة ونذورها وحق الجار والمحتاج من تنورها الخالد.

أما القاص قاسم حسين موزان فقال: لله درك يا سيدي، سؤالك أثار في نفسي اشتياق السنين العزيزة علينا، تركت فراغاً لا يشغله شاغل.. رغم الخمسين التي مضت من عمري ما زلت طفلاً صغيراً يحن لأمه وحنانها الفياض الذي لا يعرف حدوداً، طعم خبزها ورائحته يشدني إليها خبزها الذي هو جزء من تكويني وصيرورتي، وكلما نظرت إلى رغيف الخبز أرى صورة أمي لامعة وهي تقف أمام تنورها وتقاسي لسعات النار لتطعمني غذاء وحناناً، خبز أمي اصالة سومرية وهي صلة الوصل بيني وبين أخوتي.

وأضاف الكاتب محمد والي الساعدي قائلاً: أي شيء في الوجود ألذ مذاقاً من ذلك الخبز الذي تلتقطه أكفها من وسط لهيب التنور؟ ما زالت حرارة هذا الخبز تسري في العروق شهادة حب وعرفاناً لذلك الكائن القديس الذي وضع الله سبحانه وتعالى الجنة تحت قدميه، الأم تلك النفحة الخالدة في سمفونية الوجود فأي شيء في الكون يمس ينبوع القلب من ذلك الصوت الذي ينبض دفئاً ورحمة وهي تشدو لوليدها ترانيم المحبة في هدأة الليل.

وقال الصحفي أحمد الثائر: الرغيف الذي يداف بالمحبة والحنان يجعلني أشعر وهو بيدي كأني املك ثروة الكون، فالرغيف في تدويره يذكرني برؤية الكرة الأرضية، لكنها كرة أخرى قطرها الصدق ومحتواها يوصلني إلى المطلق المرئي الواضح بالصدق، يكفي ان الرغيف تصنعه أنامل امرأة هي الوحيدة القادرة على صناعة الحب الحقيقي دونما انتظار أو امل باستثمار هذا الحب، انا يا أمي قريب من الله لأن الجنة تحت قدميك.

لهذا ليس بعيداً عن الفردوس ما دام الرغيف يخرج من بين كفيك أسمر ويمثل حدود البياض.

ويبدو أن الحديث عن خبز الأم لا ينتهي خصوصاً بين الأدباء فأرتجل الشاعر حسين القاصد بيتاً شعرياً ليكون خاتمة الحديث فقال:

أمي على التنور مات رغيفها
فأتت بمهجتها إليّ مدورة

وقفة

ثياب الإمبراطور

شاكر الأنباري

قريبا ستتشكل حكومة جديدة في العراق. يمضي رئيس وزراء، مع وزرائه، ويتسنم ثان دفة السلطة. يمضي رئيس جمهورية ويأتي آخر. وهذا من الأعاجيب والأساطير، ان في العراق او الدول العربية. انتقال هادئ، دون انقلابات عسكرية او قتل، دون مؤامرات النخبة وألاعيبها، دون عسكر ودبابات. صناديق الاقتراع هي التي حددت ذلك. المرحلة الراهنة مرحلة توافق، فظروف الانتخابات لم تكن مثالية، وكان خلل قد حصل. كانت السكاكين على الرقاب. من هنا فالتوافقات ضرورية، وتتطلبها التوازنات وحراك الخارطة السياسية في الوطن.

معظم القوى الفاعلة ستشارك في الحوارات والاتفاقات والتوافقات لصياغة حكومة جديدة. الأعباء المقبلة كبيرة وعلى رأسها كتابة الدستور. هناك شريحة متناثرة بين القوى، وبعضها مستقل لا ينتمي لأي حزب او تجمع. هذه الشريحة هي ضمير البلد، ورأسه المفكر. انها راسمة مستقبله العادل والمشرق. تلك هي المثقفون. دور المثقفين اليوم في العراق غيره في الزمان السابق. المثقفون لا يجيّرون لحزب ولا لطائفة ولا لشخص. القائد المعصوم لم يعد له وجود. انهم يجيّرون فقط لعراق حر ديموقراطي موحد، يحترم حقوق الانسان المدنية. ويطمحون الى عراق علماني، قاطرته الثقافة العقلانية المنفتحة على الحضارات والأديان والثقافات.

التلاقح الحضاري دم اي مجتمع عصري. والثقافة شكلت دائما لحمة العراق، ورافعته في ايام الطائفية والعنصرية والتشرد والحروب، اذ بقيت وفية للانسان العراقي بتعدد مشاربه. وخرجت من رحم الثقافة رموز يعتز بها هذا البلد، ولم تصنف في يوم ما حسب مذهب او قومية او طائفة او دين. وهذا من الانجازات التاريخية للثقافة العراقية. الكبوات التي مرت على الثقافة، حين اقسرت على التطبيل، او اضطرت الى ان تصبح داجنة، غابت دون رجعة. وللمثقف باع طويل في رؤية مستقبل مضيء يكفل حقوق الفرد. الحقوق الشخصية بالذات. لكن ما يلاحظ هو تجاهل القوى السياسية للمثقفين في هذه الأوقات، سواء كمنظمات مهنية او تجمعات او اصوات لها حضور في الوسط الاعلامي او الفكري او الابداعي. هذا التجاهل ربما يكون مقصودا او ربما لا يكون.

السؤال كيف يوضع المثقفون في اطار بناء المرحلة القادمة؟ ما هي الطريقة التي يتعاون بها السياسي مع المثقف؟

اغلب القوى السياسية ما زالت تعيش في ذهنية المعارضة السياسية لعهد مضى وزال. الدولة كما هو معروف، لا تبنى بمنطق المعارضة السياسية، انما بمنطق العقل السياسي المؤسساتي المشرعن قانونيا، الذي يفسح مجالا هائلا للحوار وتقليب الرأي والاجتهاد. المثقف لا يود ان يكون طبّالا، فالأعراس الكاذبة صارت حديث خرافة. والمثقف يمتلك القدرة على كل ذلك بسبب سعة الأفق التي وفرتها له الثقافة ورحابة الأفكار، والحلم المحكوم به نحو عراق آخر، يختلف نوعيا عما الفناه.

ما هو رأي المثقفين فيما يجري في العراق من تحولات، وكيف يكتب الدستور، وبأي لغة، وما دور الفرد الانسان قبل كل شيء في بناء العراق الجديد؟ هل يمكن حصر الحوارات والنقاشات والتوافقات بين جدران اربعة فقط، ام ان الشريحة الواسعة من عقل العراق يجب ان تطّلع على ما يدور؟ وهل بقاء المثقفين خارج اسوار السلطة وعلى تماس مع معاناة الشعب افضل وأجدى؟ تلك اسئلة تتفق على عدم تكرار تجربة الحزب الواحد، التجربة المرة بامتياز.

لم يعد احد من المثقفين، كما حصل سابقا، يطيق، ويرغب في املاءات تنزل عليه من الأعلى، ليمجدها او يصفق لها او يعارضها. لا احد يريد ان يهمش من قبل اي سياسي مهما علت قامته، ولا من وجيه او شيخ او فقيه، فالعصمة للرب وحده، اما شؤون الانسان فعقلاء البشر اولى بمحاورتها ومناقشتها. ومن اجدر لذلك غير المثقف الحر العقلاني، المتصف بالشجاعة.

قريبا الكتاب الثامن
من سلسلة
الكتاب مع جريدة

مجانا مع جريدة (المدى)